وحيد الدين خان



المسلمون:

بين الماضي والحاضر والمستقبل

المختار الإسلامي

وحيد الدين خان

المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
٢٨ شارع شريف ت ٩١٣١٩٤
ص . ب ١٧٠٧ ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الغلاف :

الغلاف يحمل طرفي عملة انجليزية صكت ببغـــداد في القرن الثامن الميلادى لحاكم مرشيا ((أوفاريكس)) . والعملة محفوظة بالمتحف البريطاني بلندن ، وقد نشرت صورتها باذن من المتحف .

ترجمة : ظفر الاســـلام خان

مراجعة : د. عبد الحليم عويس

(مجموعة مقالات)

الطبعة العربية الأولى : ١٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد :

يضم هذا الكتاب ثلاثة موضوعات تتناول ، بصفة موجزة ، مؤشرات الحركة الاسلامية عبر القرون . وهذه الموضوعات مترابطة ومتكاملة . فأولها بمثابة مسح تاريخي وجيز لظهور الاسلام كقوة مدهشة في المـــاضي تمكنت من التأثير في مجريات العالم الفكرية والسياسية لقرون طوال ، وهو يدرس الأسباب التي ادت الى هزيمة المسلمين في العصر الحديث ، ويدل على الثغرات التي حالت دون تكلل جهودنا في العصر الحديث بالنجاح .. أما الموضـــوع الثاني فيتناول بالتحليل الحركات الاسلامية المختلفة التي قامت في العصور الأخيرة . ويدور الموضوع الثالث حول التغيرات التي طرأت على العصر والتي مكنتنا ، من حيث الامكان ، أن نجعـــل القرن العشرين قرن الاسلام ، والتي لا تزال تمكننا ، لو احســنا استخدامها ، لنجعل من القرن الحادي والعشرين قرن النهضـــة الاسلامية مثلما كان القرن الهجري الأول .

المترجم

دروس من الماضى والحاضر

توجد فى المتحف البريطانى بلندن عملة معدنية قديمة ، يحمل أحـد طرفيها اسم (أوفاريكس) بالحروف اللاتينيـة فى ثنايا (محمد رسول الله) فى ثلاثة أسطر باللغة العربية ، ويحمل الطرف الآخر كلمة (لا اله الا الله وحـده لا شريك له) ، الى جانب اسمى اثنين من ضاربى العملات ببغداد ، باللغة العربية (١) •

وأوفاريكس Offa Rex هذا ملك انجليزى كان يحـكم منطقة مرشيا Mercia فى القرن الثامن الميلادى • وهذا يدل على أن حكام أوربا كانوا يطلبون من ضاربى النقود البغداديين أن يصكوا لهم نقودهم • وهذا يدل ، كذلك ، على أننا ، معشر المسلمين كنا نتمتع فى زمن من الأزمنة بما يتمتع به الغرب اليوم من تقدم علمى وصناعى • ان المسلمين ، خلال مائتى سنة فقط من الهجرة النبوية ، كانوا قد أصبحوا أئمة العالم ، وأصبحت حاضرتهم ــ بغداد ــ عاصمة العالم الحضارية بدلا من اصطخر الايرانية ورمسيس المصرية وروما الأوربية •

ان أسلافنا بدأوا رحلتهم من مرحلة البداوة حتى قفزوا الى أعلى مدارج الحضارة بينما نحن أخلافهم التعساء ، الذين تمكنوا

Charles Owen, History of England Before the Norman Conquest, 1910.

من استئناف المسيرة ، من مرحلة متقدمة ، الا أننا فصلنا أن نسير في الاتجاه المضاد .

يصف أحد المستشرقين نهضتنا فيقول :

لقد ولد الاسلام في حي مجهول بمكة في الصحراء العربية . ولم يكد يخرج منها حتى غزا الشرقين الأدنى والأوسط بسرعة مدهشة . ثم وصل الى الأندلس عبر شمال افريقية والى حدود الصين عبر ايران . وكانت آخر نقطة وصل اليها الاسلام في أوربا هي بودابست ، حيث لا تزال مقبرة جل بابا ، بطرازها التركي على ضفاف الدانوب ، تذكرنا بأن المسلمين وصلوا حتى هذه البقعة النائية .

وكان من معجزات هذا الزحف أن أنشأ العرب المتوحشون امبراطورية عالمية ، ولم يكتفوا بنشر لغتهم في كل أرجاء العالم ، بل اكتسبوا العلوم الانسانية واستفادوا بها ورفعوا من مستواها .

وفي القرن السابع الميلادي أنشئت الأسس السياسية والاقتصادية للامبراطورية العربية العالمية .

وقامت الخلافة العباسية ، في القرن الثامن الميلادي ، بخلق أعظم الحضارات في التاريخ .

كان مؤسسو هـــذه الحضـارة يريدون نشر الاسلام ، ولكنهم اهتموا باحتضان جميع الأشـياء الجيدة وأفادوا الاسلام بها • وكانت أهم الأشـياء فى الحضارة اليونانية والرومانية هى علومها الطبيعية وقد أيقظت هذه العلوم شوق العرب لاجراء بحوث وتجارب جديدة • فتوصلوا الى أعظم النتائج فى علوم الطبيعـة والكيمياء والجبر والعلوم الفنيـة • ولا تزال مئات من المصطلحات العربية الأصل تذكرنا بمجد العرب فى هذه المجالات • انهم كانوا تلاميذ اليونانيين فى بداية الأمر ، ولكنهم ما لبثوا أن أصبحوا أساتذتهم •

وأقام المسلمون مراصـــد فى مختلف الأمكنة لدراسة علم الفلك • ويقـول دريبر عن مرصـــد اشبيلية : ان المسيحيين حولوه الى ميدان للسـاعة لأنهم لم يكونوا يعرفون للمرصد فائدة أخرى • لقد توصل الخوارزمى وأصحابه ، فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى ، الى أن محيط الأرض يبلغ عشرين ألف ميل وأن نصف قطرها يبلغ ٦٥٠٠ ميلا • ان صحة هذه التقديرات مدهشة •

وكانت هذه الأنشطة تجرى فى العالم الاسلامى ،

بينما كانت أوربا كلها تؤمن بأن الأرض مسطحة (١).

أما فيما يتعلق بالحضارة والثقافة ، فكان المسلمون يسبقون فيهما العالم كله . لقد أنشأ العرب أسواقا حديثة فى الأندلس وأناروا الشوارع ، وأثرياؤهم كانوا يبردون بيوتهم بأنابيب المياه والنافورات ، بينما كان الناس فى طرق أوربا يتخبطون فى الوحل نهارا والظلام ليلا . لقد كانت البلاد الاسلامية مليئة بالمستشفيات والمكتبات العامة والمدارس التى تدرس كل شىء من علوم الدين والرياضيات والطب والفلسفة وكان الصناع والحرفيون المهرة فى بغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة يصنعون أجود المنتوجات والأثاث من الخشب والحديد والفضة والقطن . وكان التجار يبيعونها بأغلى الأسعار حتى فى أقاصى اسكندنافيا . وكان العلم الفنى الأوربى لا يقاس بشىء فى مواجهة فنون المسلمين المتقدمة . وكان المسلمون قد تقدموا فى كل فروع المعرفة حتى لم يعد لغيرهم سوى تقليدهم . يقول بريفالت :

« لقد تعلم روجربيكون علوم العرب . ولذلك لا يحق له أو لأحد سواه أن يدعى أن يكون هو مؤسس المنهج التجريبى . فلم يكن بيكون سوى مقلد وداع الى اكتساب العلوم والأساليب الاسلامية فى أوربا المسيحية . ولم يكن يكل وهو يعلن أنه لا سبيل لمعاصريه للتوصل الى العلوم

---

(١) Edward Mcnall Burns, Wesstern Civilization , p. 264

الحقيقية سوى الوقوف على علوم العرب » (١) ٠

وقد حظى ابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨ م) بقبول عام لدى المثقفين الأوربيين حتى اعتبرت الكنيسة فلسفته خطرا على المسيحية ، فحرم « مجلس باريس » سنة ١٢١٠ م دراسة وتدريس شروح ابن رشد لكتاب أرسطو « التاريخ الطبيعى » ٠ لقد سادا ابن رشد الفكر الأوربى ، وهو الذى وضع أساس النهضة الايطالية ٠ أما المؤرخ كولتون فيقول ان ابن رشد أثر على عصره مثلما أثر داروين على فكر العصر الحاضر ٠ ولكن لكى تصح هذه المقارنة بين ابن رشد وداروين ، لا بد أن تبقى الداروونية باقية صامدة لثلاثمائة سنة قادمة (وهو أمر مشكوك فيه) ٠

***

وفى القرن السابع عشر واجهت قوة الاسلام العسكرية التحدى ٠ ولم يأت القرن الثامن عشر الا وكانت العلوم الأوربية العسكرية قد غلبت ، بصورة قطعية ، فنون المسلمين العسكرية٠ وقد حدث فى ذلك الزمن أن كتيبة بريطانية تغلبت على عتادهم وفنونهم العسكرية ظلت بدون تطوير منذ قرون ٠ وأخذت الدول الاسلامية العملاقة تتساقط ، الواحدة بعد الأخرى ، أمام الجيوش الأوربية الغازية ٠ وأصبحت أعلام أوربا

(١) The Making of Humanity .

ترفرف على قلاع الاسلام فى آسيا وأفريقيا • وكانت أوروبا قد استعبدت الدول الاسلامية اقتصاديا فى بداية الأمر ثم أخضعتها للعبودية السياسية •

وبعد التمكن من السلطان السياسى أغرقت مصالح أوربا الآلية أسواق العالم الاسلامى ، الراكد فى ظروف القرون الوسطى ، ببضائع ومنتوجات قضت على صناعات الشرق اليدوية •

وظل الشرق الاسلامى يغط فى سبات عميق • وبكلمات العالم المجرى المسلم د• عبد الكريم جرمانوس : « فان العالم الاسلامى لم يقدم بطولات خلاقة سامية عقب وفاة ابن خلدون سنة ١٤٠٦ م • وتقهقرت صناعاته وظلت حياته الاقتصادية تعيش فى الجو الرومانسى (الخيالى) القائم على الاقتصاد الزراعى البدائى الذى ينتج المواد الخام • ولا تزال المدارس الاسلامية تدرس نفس الكتب القديمة التى كانت تدرس بها منذ ألف سنة مضت » •

وبدأ العلماء الأوربيون ، منذ بداية القرن الثامن عشر ، يبحثون عن آثار الشرق الدفينة وتراثه الأدبى • لقد فتشوا عنها فى الآثار والخرائب وعرفوا بها العالم • ولا توجد بقعة فى العالم

الا وقصدها العلماء الأوربيون وجمعوا أدق المعلومات عن تاريخها وحضارتها . وحين اكتشف خبير الآثار الدنماركى (نيوبر) لوحات فى اليمن لم يكن أحد من شيوخها قادراً على قراءة نقوشها ، فأرسلت الى مدينة ريسكة بألمانيا حيث تمكن العلماء من حلها فوراً . لقد نشر العلماء الأوربيون كتبا قيمة عن تاريخ العرب واللغة العربية والدين الاسلامى !!

***

وبينما كانت أوربا تنطلق نحو التقدم ، ظل المسلمون مصابين بالركود . لقد كان المسيحيون ، فى عصر من العصور ، يدرسون علم الكلام المسيحى على يد علماء مسلمين . كان كمال الدين بن يونس فى الموصل وعز الدين الأربلى فى دمشق ، على سبيل المثال ، من كبار علماء المسيحية فى القرن السابع الهجرى ، وكان المسيحيون يتتلمذون عليهم لدراسة علوم دياناتهم ، فقد كانا يدرسان علوم التوراة والانجيل بطريقة أفضل من العلماء المسيحيين المعاصرين لهما . أما فى عصر الانحطاط فقد اضطر أحد المصريين فى عهد الأتراك الى تعيين راهب مسيحى لكى يتولى تعليم ابنه .

وخلال عصور الانحطاط انشغل علماؤنا فى الشرق بتأليف الشروح الجافة للكتب القديمة أو تقليدها فى التأليف . لقد

رهن الشرق روحه لدى (الماضى) فأصيب (حاله) بالتسوس والبلاء .

وفى فترة من الفترات ، أيام العصر العباسى ، كانت صناعة الورق من الصناعات الأهلية المزدهرة .. وفى حقبة أخرى ظلت المطابع الأوربية تخرج المطبوعات لعدة قرون حتى جاء شيخ الاسلام سنة ١٧٢٩ ليفتى بأن المطبعة بريئة من عمل الشيطان . والمسلمون الذين كانوا أئمة الطب فى عصر من العصور ، نظروا الى لقاح الجدرى بنرات الشك والريبة ، بل قيل فى البلاد الاسلامية ان الدعوة الى القضاء على الفئران والحشرات الضارة ليست الا حيلة من الأجانب المستعمرين ليدخلوا الى بيوت المسلمين وينالوا من كرامة نسائهم . وقيل ان الانجليزية لغة الشيطان ، وحرمت دراستها لمدة قرنين من الزمان . ومنطق المسلمين وفلسفتهم لايزالان قائمين على منطق أرسطو الذى دحضه علماء العصر الحديث منذ وقت طويل ... وبينما كانت القاطرة البخارية علامة الغرب ، ظل « المغزل » رمز الشرق ، على حد قول فيليب حتى . (١)

ان خطباءنا وكتابنا ، وهم يشرحون اصطدام الغرب بالعالم الاسلامى ، يقدمون لنا فهرسا طويلا من مؤامرات الغرب علينا. ولكن هذا المنهج مجرد دراسة سطحية للحقائق . فالحقيقة الأبدية

---

(١) Hitti, Islam : A Way of Life, 1670, p. 177.

هى أنه كلما اصطدم فريقان من الناس ، فان كلا منهما يستخدم للتغلب على الآخر كل ما فى جعبته من حيل ومؤامرات • والاسلام أيضا يقول بأن « الحرب خدعة » • والغلبة للفريق الذى يستخدم دهاءا أكثر • والهزيمة لا تعنى سوى ضعف المنهزم وسذاجته وقلة دهائه •

فان كنا جادين للغلبة والظهور على القوى المعادية فلابد أن نتفوق عليها علما وقوة ودهاء •• أما اعداد فهارس مؤامرات الأعداء فلا طائل من ورائه ، اللهم الا اذا كان القصد هو الاستفادة من أساليب الأعداء فقط !!

كان المسلمون يسودون افريقيا وآسيا حين برزت الشعوب الغربية عقب النهضة الأوربية • وكان من الطبيعى أن تصطدم هذه الشعوب بالمسلمين • وكانت نهاية القرن الثامن عشر هى الحد الفاصل ، فى هذه المواجهة التى دامت عدة قرون ، حين اندحر الأسطول البحرى التركى واستشهد السلطان « تيبو » فى الهند فتمكنت الشعوب الغربية من اخضاع معظم بقاع العالم الاسلامى لغلبتها •

ولكن هذه الحوادث لم تقض على عزيمة المسلمين • فحلت الحركات الاسلامية الثورية محل الحكومات التى كانت تواجه الزحف الاستعمارى • لقد نشأت هذه الحركات الثورية فى كل أرجاء العالم الاسلامى • وبعد تضحيات عظيمة النطاق

« استقلت » كل البلاد الاسلامية فى آسـيا وأفريقيـا من نير الاستعمار الغربى • ولكن الشـعوب الغربية لا تزال قادرة على احداث الانقلابات فى بلداننا وهى لا تزال قادرة على دفع البلدان الاسلامية الى التطاحن فيما بينها •• وفوق كل ذلك ، وفى ظروف السلم والأمن السـائدين ، لاتزال هـذه الشـعوب قادرة على السيطرة على بلداننا بفضل تفوقها العلمى والصناعى ، وتتخـذ هذه السيطرة أسماء جميلة مثـل معاهدات الصـداقة والتبـادل التجارى والمساعدات الاقتصادية ، ولكن الحقيقة الكامنة وراء هذه المعاهـدات ليست أقل خطرا من النظام الاسـتعمارى ـ الاستيطانى القديم •

ان هذه الحالة تبين لنا أن جهودنا الطويلة كانت تنطوى على خطأ ما • فلو كانت جهودنا تسير على الطريق الصحيح لما كان لنا أن نواجه مثل هذا المصير بعد انتصاراتنا الباهرة •

فمـاذا كان هـذا الخطأ ؟ ان هـذا الخطـأ يتلخص فى أن الحـركات الاسـلامية لم تدرك جيـدا نوعيـة العـدو الذى كانت تواجهـه ، ولذلك لم تتمكن هـذه الحركات من اتخـاذ التـدابير الصـحيحة لاخضـاع الغـرب ، أو لحمـاية الاستقلال الاسلامى ، على الأقل • فحين اسـتغرقت حركاتنـا الاسلامية فى نفخ أبواق الانتصار عقب كسر رجل واحدة مـن

أرجل الحريش (١) الاستعمارى ، تغلب علينا الحريش مرة أخرى واقفا على أرجله الأخرى ٠

***

وفى القرن الثالث عشر الميلادى ، بينما كان المسلمون سادة العالم سياسيا وحضاريا وعلماً وفناً ، قررت أوربا أن تتعلم العربية وأن تكتسب علوم المسلمين ٠ وقد نتج عن هذا القرار ذلك الحدث الضخم الذى يعرفه العالم بعصر النهضة ٠

ان أوربا ، التى تعلمت علوم المسلمين وأضافت اليها ، قد قويت حتى سادت العالم قاطبة ، بله العالم الاسلامى وحده ٠

وبعد خمسة قرون من عصر النهضة الأوربية ، كان المسلمون يواجهون ظروفا مماثلة ٠ لقد أفاق المسلمون حين وجدوا الأوربيين فى عقر دارهم بسبب تقدمهم السياسى والحضارى والعلمى والفنى ٠ وبرز من بين المسلمين من دعانا الى تعلم لغات الغرب وعلومه ٠ ولكن النتيجة ، التى أسفرت عنها هذه الدعوة فى بلداننا ، كانت عكسية ٠٠ فأوربا التى استولت على أراضينا استعبدت عقولنا أيضا ، بعد أن درسنا آدابها ولغاتها ، ناهيك بقصورنا عن التوصل الى الهدف الذى انطلقت من أجله دعوة تعلم علوم الغرب ٠

---

(١) الحريش أو الاربعينية حشرة ذات أرجل كثيرة ــ المترجم .

لماذا هذا الفارق الشاسع بين واقعتين من نوعيه واحدة ؟

ان السر يكمن فى الفارق الكبير بين دعوة الغرب الى تعلم اللغة العربية والعلوم الاسلامية ، وبين دعوة المسلمين ــ القائمة على التقليد ــ لتعلم علوم الغرب ولغاته • لقد تعلم الغرب علومنا ليهزمنا بأسلحتنا ، ولذلك لم يلتفت الى حضارتنا وآدابنا، بل درس العلوم التى كانت السبب فى قوة المسلمين • أما نحن فعندما دعونا أنفسنا لاكتساب علوم الغرب لم نكن نستهدف شيئا سوى تقليد مظاهر الحضارة القاهرة لنصبح متحضرين فى عيون السادة المستعمرين • وكانت النتيجة أننا لم تتوجه الا الى آداب الغرب ولغاته وقشور حضارته ، ولم نلتفت ــ الا قليلا جداً ــ الى علومه وصناعته التى كانت السبب الحقيقى وراء طغيان أوربا وقوتها • وحيث يوجد فارق عظيم كهذا ، فى نوعية التفكير والأعمال ، وجب أن يوجد فارق أعظم فى النتائج والمصير •

***

عقب ظهور الاسلام بقليل ، ولألف سنة تالية ، ظل المسلمون يحتلون فى العالم القديم نفس المركز الذى تتمتع به الدول العظمى فى عالم اليوم • لقد كانت أوربا لاتزال غارقة فى « القرون المظلمة » حين كان المسلمون قد أوجدوا حضارة عظيمة رائعة • وكانوا قد احتضنوا علوم الروم والفرس والمصريين

واليونانيين وأضافوا اليها وأصبحوا هم وحدهم أئمة العلم والفن فى تلك العصور • وكانت العربية لغة العلم الوحيـــدة • وكان طلاب العلم يتوجهون الى القاهرة ودمشـــق وبغـــداد وقرطبـــة وغرناطة تماما كما يتوجهون اليوم الى معاهد الغرب وجامعاته •

وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بينما كان المســلمون فى أوج شوكتهم السياسية ووصلوا حتى فرنســا : بدأت أوربا حروبها الطاحنة ضـــد المسلمين ، والتى اســتمرت لقرنين كاملين وسميت بالحروب الصليبية ، وانتهت بفشل الأوربيين نهائيا فى تحقيق شىء من أهدافهم • لكن أوربا لم تفقد العزيمة • لقـــد برز بين الأوربيين فكر جديد • كان الصليبيون قد تأكدوا خلال حروبهم من أن المسلمين أقوى منهم فى العلوم والفنون • ولنا ان نتصور حالة المعســكر الفرنسى حين بدأ الجيش المصرى يقذفه بالسهام النارية عن طريق المنجنيق • بدا للفرنسيين أن الأفاعى النارية تنطلق ، طائرة ، من معسكر المسلمين لمهاجمتهـم ! ولم يكن الفرنسيون يملكون سوى الأسلحة اليدوية القديمة ، وقد أخذتهم هذه السهام النارية على غرة تماما كما قد يحدث اليــوم لبلد متخلف تفجؤه الصــواريخ والقــذائف الحديثــة المنطلقة من الطائرات الأسرع من الصوت !

هـكذا كان المسلمون بالنسبة الى أوربا خلال هذه الحروب التى دارت بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر • وبعد الفشل

الذريع قررت أوربا تغيير استراتيجيتها لالحاق الهزيمة بالمسلمين، وأخذت تستعد لحملة جديدة على العالم الاسلامى • وكانت خلاصة التفكير الأوربى الجديد أن يتعلم الغرب علوم المسلمين ثم يهزمهم بأسلحتهم وفنونهم ذاتها •

وسمى الأوربيون حربهم الجديدة « بالصليبية الروحية » ، وكانت غاية الصليبية الروحية أن يتعلم الأوربيون علوم المسلمين فيقدموها بصورة مشوهة حتى ينفر المسلمون من دينهم ويعتنقوا المسيحية ، فتنهزم الأمة الاسلامية بتناقص عدد المسلمين الذين لم ينهزموا عسكريا •

لقد بدأت حركة التبشير المسيحية لأول مرة ، خلال الحروب الصليبية • وقد أقيم أول مركز للتبشير على يد أحد الصليبيين سنة ١١٥٤ م على جبل الكرمل • وتبعه فرانسيس أوف أسيس (١١٨٢ ـ ١٢٢٦) فأقام نظام الفرنسيسكان الذى يعتبر اليوم أقوى حركة تبشيرية فى العالم • وقد نجحت حركات التبشير فى تحريف الحقائق عن الدين الاسلامى وتاريخ المسلمين لدرجة أن الكتب الموجودة فى معظم أنحاء العالم قد امتلأت بخرافات وأباطيل عن الاسلام والمسلمين ••

وكان الجانب الآخر للصليبية الجديدة أن قامت فى أوربا حركة قوية تدعو لدراسة علوم المسلمين وفلسفتهم • وبدأت جامعات أوربا تدرس اللغة العربية ، وازدهرت حركة ترجمة

المؤلفات العربية الى اللغات الأوربية . وبدأ الطلبة الأوربيون يتوافدون على مدن الشرق الاسلامى للدراسة .

وقد واجهت هذه الصليبية الجديدة مشكلات داخلية جمة فى بداية الأمر ، لأن الطبقات الأوربية المحافظة كانت تخاف من امكان تسرب الأفكار الاسلامية الى المسيحيين عن طريق تعلمهم للغة العربية.وعلى سبيل المثال فان الراهب الفرنسيسكانى روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٤) ، وكان عالما كبيرا فى انجلترا فى ذلك العصر ، حين طالب بدراسة اللغة العربية لأهميتها العلمية ، صرخ علماء أكسفورد قائلين : « لقد أصبح بيكون عربيا » أى أنه أصبح من المسلمين !

ولكن الحركة الداعية الى تعلم علوم المسلمين ازدهرت بالرغم من هذه الصعوبات . لقد بدأ الغرب المسيرة من حيث توقف المسلمون ، وأضاف الى أبحاثهم . وظل الأوربيون يجتهدون ويتقدمون حتى تمكنوا من تغيير مقياس الطاقة والقوة لأول مرة فى تاريخ البشرية . فلم تعد القوة هى قوة الخيول والأسلحة اليدوية التقليدية بل سخروا الطبيعة واكتشفوا أسرار القوة الجديدة .

وقد استخدم الغرب هذه القوة الجديدة ضد العالم الاسلامى الذى كان العائق الأكبر دون طموح أوربا الاستعمارى التوسعى. وتمكن الغرب من الحاق الهزيمة بالمسلمين فى كل مكان ، وفى كل

مجال حتى انفرد بجميع مجالات العلم والعمل والسيادة • وقد حدث كل هذا بالرغم من أن مؤرخى الغرب قد أجمعوا على أن الباعث الحقيقى وراء نهضة الغرب ليس الا علوم المسلمين بل والمنهج العلمى التجريبى نفسه الذى اكتشفه المسلمون (١) •

وبعد خمسمائة سنة من بداية النهضة الأوربية ، شاهد التاريخ مشهدا آخر • فبعد أن طغت أوربا واندحر المسلمون أمامها ، وبهرهم حضارتها ، اندفعوا الى تعلم علوم الغرب • ولكن النتيجة ، هنا ، كانت عكسية • فحين تبنى الغرب علومنا وأضاف اليها استعبد العالم كله ، أما نحن فحين تعلمنا علوم الغرب لم نضف اليها شيئا ، بل أصبحنا مجرد ناقلين ومقلدين وعبيد لأفكار الغرب •

والسر فى هذا أن المحرك الذى دفعنا نحو تعلم علوم الغرب كان غير المحرك الذى دفع الغرب الى استيعاب علومنا •

ان من ألمع الأسماء التى طالبت المسلمين بدراسة العلوم الغربية الجديدة هو « سيد أحمد خان » (١٨١٧ — ١٨٩٨) الذى يعتبره المستشرقون مؤسس أول مؤسسة اسلامية عصرية• فقد أنشأ السير سيد أحمد خان كلية عليكره المحمدية سنة ١٨٧٥ بالهند وضحى بحياته من أجلها حتى أصبحت جامعة بعد

---

(1) Edward Menall Burn, Western Civilization.

وفاته . لقد كان سيد أحمد خان من أكبر المتحمسين لتعلم علوم الغرب ، ولاشك فى أن خدماته فى هذا الصدد غير قابلة للنسيان ولكن ماذا كان هدفه من وراء تعلم علوم الغرب ؟ لقد كشف عن ذلك زميله الحميم (ألطاف حسين حالى) فى بيت شعر له حين قال :

« تعال ، يا حالى ، لنقلد الغرب ، الآن » .

وحين عاد سيد أحمد خان من زيارته لانجلترا سنة ١٨٧٠ ، مبهوراً بما رآه فى الغرب ، أصدر مجلة « تهذيب الأخلاق » وكتب فى مقدمة أول عدد لها :

« ان الهدف وراء اصدار هذه المجلة هو ترغيب مسلمى الهند فى الاقبال على « السيفيليزيشن » أو الحضارة الكاملة وذلك لينتهى الاحتقار الذى تنظر به لشعوب المتحضرة الى المسلمين ولكى يشار الى المسلمين بأنهم قوم ذوو شأن وحضارة » .

وكان سيد أحمد خان يتصور رقى المسلمين المثالى فى « الكولونيلات والميجورات المسلمين المرتدين الملابس العسكرية الزاهية » .

وكان الهدف النهائى للتعليم الذى نادى له سيد أحمد خان هو أن يتمكن المسلمون من الحصول على أعلى المناصب فى ظل

الحكومة الاستعمارية القائمة . والحضارة التى نادى لها سيد أحمد خان قد سماها أحد تلامذته ـ مهدى أفادى ـ بكل حق بأنها « الثقافة الانجلو المحمدية » !! وهى ثقافة ذات قشرة اسلامية مظهرية وطبيعية انجليزية ، قامت على التقليد .

وكمال أتاتورك (۱۸۸۱ ـ ۱۹۳۸) هو الاسم البارز الآخر فى هذه المجموعة التى نادت بتقليد الغرب ، وقد تخطى كل الحدود ، لأنه كان يتمتع بالسلطة السياسية على عكس سيد أحمد خان . فبعد أن أحكم (كمال) قبضته على بلده ، الواقع عند ملتقى الشرق والغرب ، بدأ يصبغها بالصبغة الأوربية باندفاع وجنون غريبين .

ماذا كان هدف الخطة الكمالية لنشر « الحضارة » فى البلد الذى تحكم فى مصائر العالم لأربعمائة سنة ؟ انه يمكننا أن نفهم هدف هذه الخطة من الاسم الذى أطلق عليها . لقد كان شعار تركيا فى تلك السنين الحزينة التى تم فيها خلع الاسلام بالقوة من شعب آمن به وجاهد فى سبيله : « غرب دوغرو » أى (المسيرة نحو الغرب) ! وكانت المسيرة الوهمية نحو الغرب دامية جدا لدرجة أن أتاتورك لم يتردد فى اعلام مئات الألوف من مواطنين الذين لم تكن جريمتهم سوى عدم تقبل الحروف اللاتينية وارتداء « البرنيطة » ! لقد قضى عليهم وكأنهم متمردون على الدولة !

وكانت نتيجة هذه العقلية المقلدة أن ركز مصلحونا اهتمامهم على تعلم حضارة أوربا ولغاتها وآدابها ، فنشطت لدينا حركة ترجمة منقطعة النظير للأعمال الغربية من شعر وقصة ورواية وفلسفة . أما العلوم والتكنولوجيا ـ التى هى سر نهضة الغرب ـ فلم يبذلوا الكثير من الجهد لنشرها بين مواطنيهم . وبالرغم من أن كمال أتاتورك كان يتمتع بالسيادة الكاملة فى بلده ، الا أننا لا نجد بين بطولاته نشاء كليات العلوم والهندسة. وقد عارض سيد أحمد خان نشر التعليم الفنى بين المسلمين لأنه كان يرى أن المطلوب هو « التعليم العقلى من الطراز الأول » !

كانت هذه هى وجهة النظر السائدة بين معظم دعاة الاصلاح والتعليم الحديث بين المسلمين . لقد ركزوا جهودهم على انشاء جماعة بين المسلمين تمتاز باستيعابها الحضارة الغربية وآدابها .

ولا يوجد فارق زمنى كبير بين الحركة التى قادها أتاتورك وبين حركة الشيوعيين فى روسيا . ولكن ما أغرب أن تطلق روسيا اليوم مركباتها الفضائية الى المريخ بينما لاتزال تركيا مخزنا للبضائع الغربية !!

ان البلاد الاسلامية ، التى ظنت أن غاية التقدم هو تقليد اللغات والحضارة الأوربية ، لم تحرز حتى الآن الصلاحيةوالكفاءة الفنية لاستخراج نفطها ومصادرها الطبيعية مباشرة . ولا يزال

الغرب فى النصف الثانى من القرن العشرين . يدير شئون هذه الكنوز ، مباشرة أو بصورة غير مباشرة .

ان العقلية التى دفعت أوربا الى اكتساب علومنا كانت تطالب بتعليم فنون المسلمين لالحاق الهزيمة بهم عن طريق استخدام فنوننا نفسها . لقد تعلمت الشعوب الأوربية علوم المسلمين وفنونهم ولكنها لم تلمس حضارتنا أو ثقافتنا . لقد نظرت أوربا لى علومنا كمصدر للطاقة العصرية ولذلك استخدمتها لالحاق الهزيمة بأعدائها . ولم يطلقوا على كفاحهم هذا تسمية « تقليد المسلمين » أو « المسيرة نحو الشرق » بل سموها « الصليبية الروحية » وكانت تعنى كسب الحرب التى خسروها ، ولكن بأسلوب جديد . ولذلك حين تمكنوا من التوصل الى غايتهم فى نهاية الأمر ، وتحقق لهم ما أرادوا : لم يقولوا انهم اقتبسوا تلك العلوم من المسلمين . بل سموها بالنهضة ، أى الميلاد الجديد ، فاعتبروها ضالتهم التى اهتدوا اليها مرة أخرى . لقد اقتبست أوربا هذه العلوم من المسلمين ، ولكنها حذفت حلقة الوسط وربطت نهضتها بحلقة البداية أى بتراث اليونان وحضارتها القديمة . أما نحن فأخفقنا فى ذلك حين تعلمنا العلوم الأوربية ، بالرغم من أن أوربا كانت تعرض علينا نفس العلوم التى اقتبستها منا ، مع اضافات جديدة وهامة . لقد أقبلنا على هذه العلوم بعقلية المقلدين المبهورين . لقد كان عملنا هذا « تقليداً للغرب » لدى سيد أحمد خان ؛ و « المسيرة

نحو الغرب » لدى كمال أتاتورك • وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاختلاف بين العقليتين أن بقينا نحن مجرد مقلدين مضحكين ، بينما أصبح الأوربيون سادتنا بعد اكتساب علومنا •

لقد كان الهدف النهائي لحركة أتاتورك أن يرتدى الأتراك البذلة والبرنيطة • وكان منتهى خطة سيد أحمد خان أن يجيد الشبان المسلمون الآداب الغربية • والواضح أن هذه العقلية لم تكن لتنتج الا ما أنتجته بالفعل •

ان درس التاريخ حين ينبهنا الى مواطن الخطأ فى برامجنا ، يشير فى الوقت ذاته الى ما يجب أن نفعله الآن اننا يجب أن نفعل نفس ما فعله الغرب حين تعلم علومنا • علينا أن نتعلم من الغرب تلك العلوم فحسب التى هى منبع قوته المادية ثم نجاهد لغلبة الاسلام والحاق الهزيمة بالحضارة المادية •

***

وسأقدم هنا صفحة من تاريخ الهند ، وهى ليست مجرد صفحة من تاريخ بلد معين فقط ، بل هى مرآة تصلح لكل العالم الاسلامى •

لقد اصطدم مسلمو الهند بالغرب بصورة عنيفة حين شاهدوا قوما قدموا من وراء البحار ، قد سيطروا على بلادهم كلها ما عدا القلعة الحمراء فى دلهى • ان الحرب التى خاضها

الهنود سنة ١٨٥٧ دفاعا عن الامبراطورية المغوليــة لم تكن الا محاولة فاشلة للابقاء على الماضى المنهار • وهذا الفشل لم يكن فشلا عرضيا ، وقع بالمصادفة ، ولا كان نتيجــة خدعة الانجليز الماكرة التى لا يكف خطباؤنا وكتابنا عن فهرستها • ان الســبب الوحيد فى انتصار الانجليز وفشل الهنود يتمثل فى تسلح الانجليز بقوى العصر بينما كان رجال الامبراطورية المغولية ، أو مسلمو ذلك العصر ، يجهلون التطورات التى حدثت فى مقاييس القــوة ويجهلون أنهم لا يملكون القوة العصرية التى يمتلكها عدوهم •

ان « بابر » هو مؤسس الدولة المغولية فى الهند ، وقد فتح دلهى سنة ١٥٥٦ • ويقول أحد المؤرخين : ان السبب فى تغلب بابر على دلهى لم يكن يكمن فى ضــعف ســلطنة دلهى ، بل فى المدافع العصرية التى كان الهنــود يجهــلون طرق اســتخدامها تماماً •

ومنذ ذلك الوقت تقهقرت الهند فى فنون الحرب ، بل الأصح أن نقول انها وآسيا كلها ظلت راكدة ومتحجرة حيث هى ، بينما ظلت أوربا تتقــدم بسرعة فى فنــون الحرب وانتــاج الأســلحة الجديدة • ان الامبراطورية المغولية العظيمة التى ظلت تحــكم الهند قرنين كاملين لم تعــد قادرة فى القرن الســابع عشر على مواجهة الجيوش الأوربية • ان القوات الأجنبية التى جاءت لغزو الهند كانت تتحكم مسبقا فى الطرق البحرية • أما القوة البحرية

الأوربية فقد ظلت تتقدم يوما بعد آخر ، وكانت العامل الأساسى الذى مكن الأوربيين من غزو العالم •

وفيما يلى خلاصة دراسة غير منحازة أجراها أحد المؤرخين المعاصرين حول طبيعة الأوضاع التى كان الشرق والغرب يمران بها حينذاك :

كان « أكبر » هو الامبراطور الثالث فى الأسرة المغولية فى الهند ، وكان يمتلك قوة برية عظيمة ، ولكنه كان يفتقر الى القوة البحرية تماماً • وقد وصل فاسكودا غاما سنة ١٤٩٨ الى كاليكوت بالهند الجنوبية ماراً برأس الرجاء الصالح • واستولى ألبوقرق على ملقا سنة ١٥١١ وبذلك أنشأ قاعدة للقوة البرتغالية فى المحيط الهندى • واستولى البرتغاليون على منطقة « جوا » على الشاطىء الغربى للهند ولكن الامبراطور أكبر لم يفعل شيئا لطردهم من البلاد • وقد حدث هذا بالرغم من أن البرتغاليين كانوا فى بعض الأحايين يعترضون طريق الحجاج المتوجهين الى الحجاز ويكون بينهم الأمراء وأعضاء الأسرة المالكة •

وكانت الأحداث تؤكد أن راية « أكبر » قد ترفرف على البر ، ولكن البرتغاليين هى المسيطرون على البحار •

ولكن أكبر لم يقم بشىء جاد • ويقال انه أراد ذات مرة

انشاء سفينة بحرية ولكنها كانت للترفيه وليس لتقوية القوة البحرية .

أما فيما يتعلق بالمدفعية فكانت القوات المغونية وغيرها من القوى الهندية تعتمد على خبراء أجانب ، وكانوا من الأتراك بصفة عامة . وكان هؤلاء يدربون الجنود المحليين ، ولكن لا يعرف أن الامبراطور أكبر أوفد أحدا الى الخارج لاكتساب هذا الفن ، ولا شجع أحدا على تطوير هذا الفن داخل البلاد .

ويخبرنا التاريخ كذلك أن اليسوعيين قدموا للامبراطور أكبر نسخاً مطبوعا من الانجيل وبعض الكتب الأخرى . وكان ذلك أمراً هاما جدا فى ذلك العصر ، ولكن أكبر لم يفكر فى المطبعة ، بالرغم منأن المطبعة كانت ستقدم دعما كبيرا لحكومته ولمشاريعه الكبيرة . هذا بينما أنشأ المبشرون المسيحيون أول مطبعة فى الهند فى بلدة سيرامبور ، وأصدر أحد الانجليز أول جريدة بالهند سنة ١٧٨٠ فى بلدة كلكوتا .

وهذا المثل ينطبق كذلك على الساعات . فقد كان الأمراء المغول يستخدمون الساعات بكثرة . وكان البرتغاليون ، ثم الانجليز ، يحضرون هذه الساعات الى الهند ، وكانت الساعات من كماليات الأمراء بينما كان عامة الشعب يستخدمون الساعات الرملية والمائية والشمسية . ولكن حكام الهند المسلمين لم يحاولوا أبدا أن يفهموا سر هذه الساعات التى كانت تعمل

بالزنبركات ، ومثل هذه الساعات لم تصنع فى الهند الاسلامية •
ويبدو هذا النقص واضحا فى الميل نحو الميكنة لدى الهنـــود فى
ذلك العصر ، بالرغم من أن البلاد كانت تزخر بالفنانين والصناع
المهرة •

وليست الهند وحدها التى كانت تعانى من نقص فى قـــوة
الابداع والاختراع ، بل كانت آسيا كلها تعانى منها ، فلم تصل
هذه الدول الى تطوير ميكانيـــكى بالرغـــم من أن سر نهضـــة
الشعوب الحـــديثة ــ المادية ــ يكمن فى التوصـــل الى هـــذا
التطوير •

ان العرب ، الذين طوروا « العلوم العملية » تطويرا عظيماً
فى البداية ، والذين أناروا العالم فى ظلام العصور الوســـطى ،
فقدوا همتهم فى هذه المرحلة وبدأ العالم ينســـاهم • ويقال ان
العرب هم الذين اخترعوا الساعة لأول مرة فى القرن الســـابع
الميلادى ، فكانت هناك ساعة معروفة فى دمشق • وكانت هناك
ساعة معروفة فى بغداد الرشيد • ولكن فن صـــناعة الســـاعات
انتقل من أيدى العرب حين دب فيهـــم الانحطاط ؛ بينما تطور
هذا الفن كثيرا فى بعض البلاد الأوربية ، ولم تعد الساعة شيئاً
غير مألوف هناك •

ان عرب الأندلس كانوا يستخدمون مطابع من خشب قبـــل
وقت طويل من ظهور مطبعـــة كاكســـتون فى القـــرن الخامس

عشر • فكانوا يستخدمونها لطباعة الأوامر الحكومية • ولـكن مطابع عرب الأندلس لم تتطور أكثر من مرحلة الكليشيهات ، وانتهت هناك • وظل الأتراك يحكمون أجزاء كبيرة من الشرق الأوسط وأوربا لقرون عديدة ولكنهم لم يهتموا بالطباعة ، بينما كانت المطابع تخرج المئات من الكتب فى البلاد الأوربية المجاورة • ولابد أن الأتراك كانوا على علم بها ، ولكنهم لم يتحركوا للاستفادة من هذا الاختراع العظيم • وقد يكون السبب ، كما قال أحد المؤرخين من غير المسلمين : أن الأتراك اعتبروا طباعة آيات القرآن اساءة وتدنيسا لها خشية أن تقع الأوراق المطبوعة تحت الأقدام أو ترمى فى القمامة •

وأول من أدخل المطبعة الى مصر هو نابليون بونابرت (١٧٦٩ ــ ١٨٢١) ومن هناك وصلت المطبعة الى البلاد العربية الأخرى •

وكانت آسيا ــ حتى عصر المطبعة ــ راكدة وهامدة بعد أن عاشت ماضيها المضيء • ولئن كانت أوربا الى عصر المطبعة متخلفة بعض الشيء فى ميادين شتى ، الا أن روحا وحماسا جديدين كانا يحركان مغامريها عبر البحار ، وكان مفكروها يسلكون طرقا شتى جديدة • وبينما بدأت أوربا تستفيد من طاقات الطبيعة ، فقد ظل الأسلوب التقليدى ، الذى يعتمد على الجهد العضلى ، سائدا فى الشرق •

ومما لا شك فيه أن البلاط الامبراطورى فى دلهى كان عظيما ومهيباً حتى القرن السادس عشر ، وكانت الأنشطة التجارية والحرفية لازالت فى أوجها • ولكن الهند ، وبلاد الشرق بصفة عامة ، كانت تفتقر الى حماس أوربا لتسخير الطبيعة ، تلك الخاصة التى سلحت أوربا بقوة جديدة •

وكان التجار البرتغاليون قد وصلوا الى الهند فى عهد الامبراطور أكبر فى القرن السادس عشر ، وفى عهد ابنه لامبراطور جهانكير هزم لأسطول الانجليزى أسطول البرتغاليين •• وفى سنة ١٦١٥ جاء الى الهند أول سفير انجليزى ـ هو السير توماس رو ـ الذى طلب من الامبراطور السماح للتجار الانجليز بانشاء مخازنهم فى الهند • فسمح لهم الامبراطور بذلك ، فأقيمت أولى مخازنهم فى بلدة (سورت) ، ثم أقاموا مدينة « مدراس » لهذا الغرض سنة ١٦٣٩ •

ولمدة مائة سنة تالية لم يهتم الناس فى الهند بوجود الانجليز •• فلم تكن هيمنة الانجليز على الطرق البحرية ، واخراجهم البرتغاليين من البحار ، تزعج الحكام المغول • وحين برز ضعف الامبراطورية المغولية فى عهد أورنجزيب (١٦١٨ ـ ١٧٠٧) بذل الانجليز جهداً منظما للاستيلاء على الأراضى بالقوة • ولكن أورنجزيب ـ الذى كان الأعداء يحاصرونه من كل جانب ـ تمكن من الحاق عقاب صارم بهم • وكان الفرنسيون ، قبل

الانجليز ، قد أوجدوا موطىء قدم لهم فى الهند وبينما كان الانحطاط السياسى والاقتصادى يزداد اتساعا وشيوعا ، كانت شعوب أوربا النشيطة تغزو يوما بعد آخر أجزاء جديدة من الشرق .

وكان حيدر على (١٧٢٢ ــ ١٧٨٢) (١) يتمتع بكل الصفات التى يتمتع بها زعيم عالى الهمة . وبالرغم من أنه كان يعانى من داء عضال الا أنه كان متمكنا من نفسه ويتمتع بقدرة مدهشة على العمل . وبينما لم يكن أحد قد لاحظ أهمية القوة البحرية الانجليزية ، ولا شعر بتفاقم خطر الوجود الانجليزى ، كان حيدر على يشعر بالأمرين منذ مدة . وقد حاول طرد الانجليز من البلاد ، وأرسل السفراء الى رؤساء قبائل المراهتا ونظام حيدر آباد والى شجاع الدولة أمير أودهز ، للقيام بجهد موحد ، ولكنه لم يفلح بسبب سياسة اللامبالاة لدى الأطراف الأخرى ومع ذلك فقد بدأ يعد أسطولا بحريا ، وقد فتح جزر مالديف فى المحيط الهندى ليتخذ منها قاعدة لبناء السفن ومركزاً لأنشطة البحرية . ولكنه توفى قبل أن يحقق حلمه . فاستمر ابنه السلطان تيبو (١٧٥١ ــ ١٧٩٩) ــ الذى خلفه على الحكم ــ فى تقوية أسطوله البحرى ، وأرسل رسائل الى نابليون والسلطان العثمانى .. ولكن الانجليز عاجلوه بالحاق الهزيمة وقتله . وكان الانجليز

---

(١) ملك منطقة ميسور بالهند الجنوبية ــ المترجم .

متقدمين جدا فى المجال السياسى والعسكرى وقد ظهرت القـوة بوضوح فى مجتمعهم واخترعوا أشياء كثيرة ، فوضعوا أساس الثورة الصناعية •

والفارق الـكبير بين المجتمع الهنـدى والمجتمـع الأوربى حينذاك كان يتمثل فى ركود الهند ونشاط الغرب بقوى الحياة الجديدة التى غيرت كل مجالات الحياة الغربيـة • وحين أعطت الملكة اليزابيث البراءة لشركة الهند الشرقيـة سـنة ١٦٠٠ كان شكسبير (١٥٦٤ ــ ١٦١٦) لا يزال على قيد الحياة • وبعـد عشر سنوات فقط أقيمت الجمعية الملكية الانجليزية لتنشـيط العلوم •

وفى أوائل القرن السابع عشر حصلت شركة الهند الشرقية على الاذن لانشاء مخازن تجارية فى مدينـة (سـورت) شرقى الهند • وبعد عدة سنوات اشترت الشركة قطعة أرضية فى جنوب الهند وأسست مدينة مدراس • وفى سنة ١٦٦٢ حصل تشارلز الثانى على جزيرة بومباى ضمن المهر الذى دفعـه البرتغاليون اليه ، فقام تشارلز بنقل ملكيتها الى شركة الهند الشرقية • وفى سنة ١٦٩٠ وضع أساس مدينة كلكوتا • وهكذا رسخت أقـدام بريطانيا على سواحل الهند من مختلف الأنحـاء ، ثم أخـذت تتوغل الى الداخل فى نهاية القرن السابع عشر • وفى حرب پلاسى سنة ١٧٥٧ تمكنوا من الاسـتيلاء على أراض واسـعة فى شرق الهند •

وخلال بضع سنوات استولوا على سواحل بنغال وبهار وأوريه والمناطق الشرقية • ووصلوا الى دلهى بعد أربعين سنة ـ أى فى أوائل القرن التاسع عشر ـ عندما خطوا خطوة كبيرة •

لقد وقعت معركة پلاسى ـ الآنفة الذكر ـ سنة ١٧٥٧ ، وبدأت الثورة الصناعية سنة ١٧٧٠ وأخذت التطورات والتغيرات فى موازين القوى تحدث بسرعة شديدة • وفى سنة ١٧٦٠ أخترع المكوك الطائر ، وحل الفحم محل الخشب لاذابة المعادن • وفى سنة ١٧٦٤ اخترع هارغريفز آلة الغزل التى سماها « جينى » ، وفى سنة ١٧٧٦ اخترع كراستين آلة غزل جديدة سماها « ميول » • وفى سنة ١٧٨٥ سجل « كارت ورائت » حق براءة المغزل المتحرك بالقوة الميكانيكية • وفى سنة ١٧٦٨ أكمل (وات) صناعة المحرك الدخانى •

ان قوة الدخان هى التى وضعت أساس الثورة الصناعية • فقد مكنت الانسان ، لأول مرة ، من أن يصنع منتوجات رخيصة بتكاليف قليلة ، كما أمكن نقل هذه المنتوجات بسهولة وسرعة باستغلال قوة الدخان ذاتها ، الى أى مكان من العالم •

ومعلوم أن الانسان كان قد اكتشف القوة الدخانية فى الماضى البعيد ، فقد عرف الناس هذه القوة سنة ١٣٠ ق•م ، وكانوا يستخدمونها فى الألعاب • ولكن المحرك الدخانى الأول ذلك الذى اخترعه توماس سيفرى سنة ١٦٩٨ • ثم تمكن

توماس نيوكومين سنة ١٧٠٧ من فصل الرجل عن الاسطوانة . (السلندر) ، وأخذوا يستخدمون هـذا المحرك سـنة ١٧١١ لسحب المياه من المناجم . وفى سنة ١٧٦٩ سـجل جيمس وات براءة اختراع محرك دخانى جديد متقدم . وفى السنة نفسـها تمكن المهندس الفرنسى نيكولاس جوزف من صنع عربة تجرى على الطرق البرية بالقوة الدخانية . أما العربة الدخانية ، التى لقيت الرواج وأمـكن اسـتخدامها بسـهولة ، فقد اخترعهـا (ريتشارد تريڤى‌ثيك) الانجليزى و (أوليڤرالڤانس) الأمريكى سنة ١٨٠٠ وقد اخترع جورج سـتفنسون محـرك للسـكك الحديدية سنة ١٨٢٩ باجراء الاصـلاحات على المحـرك الآنف الذكر . ولأول مرة رصفت الخطوط الحديدية فى بريطانيا سنة ١٨٣٠ بين ليڤربول وما نشستر وخلال لثمانية عشر عاما التالية كان طول خطوط السكك الحديدية قد بلغ خمسة آلاف ميـل فى بريطانيا .

وكانت المحاولات مستمرة ، فى الوقت نفسه ، لاستخدامالطاقة الدخانية للأغراض الملاحية . وقد نجح وليام سيمنغثون سنة ١٨٠٢ فى محاولاته لصنع سفينة بحرية دخانية . وفى سنة ١٨١٩ عبرت أول سفينة دخانية المحيط الأطلنطى . وفى سـنة ١٨٥١ أقيم فى بريطانيا ما يسمى « بالمعرض العظيم » Great Exhibition وكان مظهرا للتقدم الصناعى الذى أحرزه الغرب حينذاك .

لقد كتب الشاعر محمد اقبال يقول : « ان النقطة النهائية

لتخلف المسلمين كانت سنة ١٧٩٩ حين تحطم الأسطول العثمانى واستشهد السلطان تيبو فى الهند » •

ولكن لو وعينا وأدركنا التغيرات التى كانت تجرى حينذاك فى الغرب ، والركود الذى كان يعانى منه الشرق ؛ لتوصلنا الى أن أسباب هزيمتنا لا تكمن فى دسائس ومؤامرات الغرب، بل تكمن حقيقة فى ضعفنا وتخلفنا الذى مكن للآخرين من التغلب علينا • لقد تحطمت الامبراطورية الاسلامية العظيمة فى الهند وأخذ النفوذ التركى يتقلص ويتزعزع لأن الغرب تسلح بقوى جديدة غيرت موازين القوى • وأخذت هذه الموازين والفروق تتضح على مر الأيام حتى تمكن الغرب من الحاق الهزيمة بنا فى كل ميادين الحياة ، وقعد جاثماً على صدورنا •

لنتصور الثورة التى كانت قد وقعت فى الغرب قبل اكتمال سيطرة الانجليز على الهند سنة ١٨٥٧ •• فبينما كانت أوربا تشهد ثورة فى كل المجالات كان حكام الهند من المغول منصرفين الى تشييد أبنية تذكارية مثل تاج محل • وبينما كان العلماء والشعراء مشغولين عندنا بالبطولات الكلامية فى بلاطات الملوك ليحصلوا على الفتات ، كان علماء الغرب ومفكروه مشغولين بالأبحاث العلمية والفنية • ان عقلاءنا وحكامنا لم يكونوا غافلين عن هذه التطورات ، فحسب ، بل كانوا يجهلون تماما التغيرات التى كانت تحدث فى العالم حينذاك !!

كان اللورد بينتنغ ، الحاكم العام للهند، قد قال سنة ١٨٣٤ :
« ان ميادين الهند تبدو بيضاء بهياكل الحائكين العظمية . ومن الصعب أن تجد نظيراً لهذا الوضع فى حقل التجارة » .. ان هذا القول يدل على ان الثورة الآلية الأوربية كانت قد تمكنت ، قبل ربع قرن من ثورة ١٨٥٧ ، من تدمير الصناعات الهندية التقليدية .. وهذا ما تكرر فى كل أنحاء العالم الاسلامى . ان الشعوب الغربية ، لم تستول فحسب على وسائلنا الاقتصادية بفضل تسلحها بالقوى الجديدة ، بل وكذلك أصبحت تتمتع بموقف حاسم فى المجال العسكرى .. وغنى عن البيان أن هذا التباين الشاسع فى قوى الجانبين لم يكن ليؤدى الى نتيجة ما سوى التى وقعت بالفعل .

***

ان البطولات الكلامية التى يخوضها خطباؤنا وكتابنا تنتهي عموما . بهذه العبارة التقليدية :

« ان فلسطين تحتاج اليوم الى صلاح الدين الجديد ليحررها » ..

وهم يعتقدون أنهم بأداء هذه العبارة قد أعطوا للموضوع حقه . ولكن الحقيقة هى أن هذه المعالجة ناتجة عن دراسة ناقصة جداً للقضية .

ان مولد شخص مثل صلاح الدين لن يحل القضية الفلسطينية اليوم .

اننا نقصد بالسلطان صلاح الدين (٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ) قائدا جريئا مؤمنا . ولكن خصائص الجرأة والايمان وحدها لاتكفى للفوز فى الحياة الدنيوية المادية . والسلطان (تيبو) (وحاكم جنوب الهند فى أواخر القرن الثامن عشر) كان يتمتع بكل خصائص صلاح الدين الشخصية . ولكن السلطان (تيبو) لم ينتصر على الانجليز .

ان صلاح الدين الأيوبى كان نتاج زمن الحروب الصليبية . وكان عمر الفاروق ، رضى الله عنه ، قد فتح القدس سنة ٦٣٦ م. ولأربعة قرون تالية لم يحاول المسيحيون استرجاع القدس .

وفى أواخر القرن الحادى عشر حث البابا أربن الثانى فرنسا على تحرير القدس من قبضة « المسلمين الظالمين » . وبعد محاولات استمرت سنتين تمكن المسيحيون الأوربيون من احتلال القدس سنة ١٠٩٨ م ، بالحاق الهزيمة بالأتراك السلاجقة.

وتعرف سلسلة الحروب التى تلت بين أوربا المسيحية والعالم الاسلامى بالحروب أو الحملات الصليبية . وقد بدأت أول حملة صليبية فى ١٠٩٨ وانتهت آخرها فى سنة ١٢٩١ ، واستمرت المعارك بين الجانبين خلال هذين القرنين .

ووقعت الحملة الصليبية الثالثة فى أواخر القرن الثانى عشر، وهى التى خلدت اسم صلاح الدين • فقد تمكن « قلب الأسد » المسلم هذا من الحاق الهزيمة بقوى أوربا المتحـــدة ، فاســـتعاد القدس سنة ١١٩٠ م ، بعد أن ظلت المدينة المقدســـة تحت نير المحتلين تسعين سنة • وقد واجه صلاح الدين فريدريك قيصر ألمانيا وملوك انجلترا وفرنسا وصقلية وليوبولد النمسوى ودوق برغندى وكونت فلاندر وآخرين • وهكذا فرض احترام الاسلام والمسلمين ، مرة أخرى ، على العالم كله • وقد كتب لين بول عن نتائج الحملة الصليبية الثالثة يقول : « ان القوى المتحدة لأوربا المسيحية جاءت فى الحملة الصليبية الثالثة ولكنها لم تتمكن من زعزعة قوة صلاح الدين » •

وقد توفى صلاح الدين سنة ١١٩٥ م ، وقد قصم بفتوحاته ظهر القوة الأوربية ، فلم يعد الصليبيون قادرين بعده على اتخاذ خطوة حاسمة ، وان استمرت محاولاتهم لاستعادة ما فقـــدوه • وكانت أوربا ترتجف من صلاح الدين وقد بلغ بها الذعر الى درجة فرض ضريبة سميت « بضريبة صلاح الدين » لمواجهـــة هذا المجاهد • وكانت هذه الضريبة تبلغ عشر دخل الفرد الأوربى •• وقد علق المؤرخ المعروف جيبون على هذا الأمر قائلا :

« ان صـــلاح الدين قد جبى خـــراج عظمته من أوربا على صورة هذه الضريبة ، ذلك الخراج الذى

لم يتمكن حاكم ما من جبايته حتى الآن » •

انه لاشك فى أن صلاح الدين كان يجيش بالايمان والجرأة والشجاعة • ولاشك فى أن عقيدته الدينية القوية كانت عنصرا حاسما فى انتصاراته • ولكننا نخدع أنفسنا لو زعمنا أن انتصارات صلاح الدين كانت نتاج ايمانه وجرأته وحدهما • ولو كانت هذه هى كل الكلمات التى نملكها لدراسة التاريخ فاننا لن نفهم حقيقة التاريخ أبداً ، وسنكون ضحايا الأفكار الرومانتيكية ، غافلين عن الحقائق الخطيرة التى لن ينتصر شعب ما فى هذا العالم المادى بدون معرفتها •

فما هو العامل الآخر الذى كان يقوم بدور حاسم فى انتصاراته ؟ لكى نفهم ذلك العنصر ، علينا أن نتدبر الاقتباس التالى الذى يشرح فيه أحد المؤرخين وضع المجتمع الاسلامى ابان الحروب الصليبية :

« ••• ان الناس كانوا ،بمبادرات شخصية ، ينشئون مساكن الجيوش التى كانت ترابط على الثغور الاسلامية لصد الهجمات الخارجية • وكانوا يتكفلون بجميع حتياجاتهم من مأكولات وأسلحة وذخائر • ان هذه المبادرات قد قامت بدور كبير فى صد الحملات الرومية فى العصر العباسى ، وفى الدفاع عن الشام ومصر ابان الحملات الصليبية •

لقد خصصوا « أوقافا » لتزويد المجاهدين بالخيول والسيوف والرماح وغيرها من لأسلحة ، الأمر الذى أدى الى نهضة صناعية الأسلحة بتلك المناطق ، لدرجة أن الفرنجة كانوا يقصدون مصر والشام لشراء الأسلحة فى فترات الصلح والسلام ، فاضطر علماء ذلك العصر الى الافتاء بأن بيع الأسلحة للفرنجة حرام » .

ان الفاتح صلاح الدين لم يكن يتمتع بالايمان والشجاعة وحدهما بل كان يتمتع أيضا بالقوة العسكرية الحاسمة فى عصره. وبكلمة أخرى ، فان صلاح الدين ، ان كان يتمتع بالايمان والشجاعة ، فقد كانت بلاده ، من الناحية العسكرية ، تتبوأ المكانة التى تحتلها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى عالم اليوم .

انها لحقيقة أن شجاعة شخص ما مهما بلغت لا تكفيه ليدق المسمار بقبضته اليدوية ، فلا بدله من مطرقة . ان هذه الحقيقة تنطبق على كل الأفعال البشرية وهى التى تكفينا لفهم بطولة صلاح الدين.

اننا نظن أن بطولات فاتحينا العظام تعزى الى شجاعتهم وهممهم العالية ، ولذلك حين نحث على الاتيان بالأعمال المماثلة نكتفى بالقاء درس حول الشجاعة والايمان . ان الشجاعة المجردة لا تغلب وحدها ، بل لابد من أن تكون مسلحة بقوة

عصرها . وقد انتصر صلاح الدين لأنه كان يملك قوة عصره .
وعلى العكس منه ، فقد أخفق السلطان تيبو ، بالرغم من عظيم
شجاعته ، لأنه كان يواجه الانجليز المتسلحين بالأسلحة الجديدة
بينما كان هو وجنوده لا يحملون سوى الأسلحة التقليدية
القديمة ولم يكن أمامهم من سبيل لامتلاك أسلحة جديدة عدا
شرائها من الانجليز .!!

ان هذه العقلية التافهة قد أنتجت الشعراء والخطباء فى
مجتمعاتنا ، فهم قادرون على اثارة الهمم بطوفانات كلامية
لا طائل من ورائها . ولو كنا تتمتع بالفهم الصحيح والعقلية
السليمة لبرز من بيننا العلماء والخبراء مثلما حدث فى اليابان .
ان هذا هو أساس الغفلة التى أفشلت كل جهودنا فى العصر
الحاضر . اننا جد فخورين بأننا نخلف وراءنا تراث التضحيات
فحسب ، بينما المطلوب أن نترك وراءنا تراث الفتح والانتصار .

الحركات الاسلامية فى العصر الحديث *

بدأت قضية العصر الحديث والاسلام فى القرن السادس عشر حين تمكن البرتغاليون من اكتشاف الطريق البحرى المؤدى الى الهند ، فسيطروا على بحيرة العرب والمحيط الهندى فعرقلوا تجارة العرب مع شرق آسيا . وكان اختراع المحرك الدخانى فى القرن السابع عشر ، وظهور العلوم الطبيعية الحديثة فى القرن الثامن عشر بمثابة اضافات جديدة لقوة أوربا . وقد وصلت غلبة الغرب على الشرق الى أوجها حين شقت قناة السويس سنة ١٨٦٩ ففتحت طريقا مباشرا بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . وكان المسلمون غافلين عن الغلبة الأوربية طالما لم تجاوز السيطرة على المراكز والأسواق التجارية . ولم يتنبه زعماء الاسلام الا حين أكمل الأوربيون سيطرتهم الاقتصادية بالغلبة السياسية على العالم الاسلامى .

ثم بدأت حركات متنوعة تظهر فى العالم الاسلامى منذ أواخر القرن التاسع عشر . ولكننا نجد أن جميع الحركات الاسلامية التى قامت خلال هذه المدة لم تقم الا بدوافع الانفعال . ولاتوجد بينها حركة واحدة تولدت بدافع ايجابى . ان تدخل القوى الأجنبية فى المجتمع المسلم أوجد مشكلات وقضايا متعددة وكرد

(*) ألقى الاستاذ وحيد الدين خان هذه المحاضرة بجامعة عليكره الاسلامية ، بالهند ، فى ٢٥ يناير ١٩٧٧ — المترجم

فعل لهذا الوضع قام بعض الناس بنشاط حركى اسلامى كان كما ذكرنا ، نتيجة أحوال خارجية وليس نتيجة الفكر الايجابى النابع من التعاليم الاسلامية وتدبرا للسيرة النبوية •

وهذه الحركات الانفعالية ذات اتجاهات شتى ، ويمكننا أن ندرسها تحت عناوين أربعة :

١ ــ حركات المواجهة •
٢ ــ حركات المحافظة •
٣ ــ حركات الاحياء •
٤ ــ حركات التعمير •

***

فأما حركات المواجهة فقد ظهرت فى صورة حركات التحرير السياسية وقد ظهر بيننا عدد لا يحصى من القادة لسياسيين الذين نهجوا هذا الطريق ، ابتداء من السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ــ ١٨٩٧) الى أبى الكلام آزاد (١٨٨٨ ــ ١٩٥٨) • وقد ملأ هؤلاء بخطبهم ومقالاتهم العالم الاسلامى كله حماساً ونشاطاً • وكان الأفغانى ينادى بـ « مصر للمصريين » ، ورفع سليمان البارونى ابان الاحتلال الايطالى لليبيا شعار « موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غداً أذلاء » •

ان كل القادة السياسيين رفعوا هتافات مماثلة وقد ضحى الملايين بحياتهم للنجاة من الغلبة الأجنبية وتكبدوا فى ذلك خسائر لاتحصى • ويصح القول اليوم ان هذا الكفاح قد وصل الى هدفه المنشود فى معظم البلاد ، وان كانت الحقيقة هى أن الذى تسبب فى انتصار حركات التحرير هو تطاحن القوى الاستعمارية الغربية فيما بينها والذى وصل الى ذروته فى الحربين العالميتين الأولى والثانية •

ولكن انتصار حركات التحرير لم يحقق الآمال التى ضحى بحياتهم من أجلها المليون شهيد من الجزائريين والمائتا ألف من الهنود • ان شعوب الغرب لاتزال تهيمن على الشعوب الاسلامية • والتغير الوحيد الذى طرأ هو أن هيمنة الغرب علينا صناعية واقتصادية اليوم بينما كانت سياسية وعسكرية بالأمس ان الهيمنة الغربية الجديدة شديدة وصارخة لدرجة أنه لا يمكن وصف سياسات الدول الاسلامية بأنها سياسات مستقلة فى حقيقة الأمر • ان الدول الاسلامية تدافع عن نفسها بشراء الأسلحة من ذات الدول الغربية التى تقدم لها المساعدات الفنية لادارة المجالات التمدنية • ان مؤثرات الغرب قوية ، فهو قادر متى شاء على تصفية أحمدو بلو (١٩٦٦) والملك فيصل (١٩٧٥) ، وعلى تدمير الحركة الفلسطينية على أيدى الأردن (١٩٧١) وسوريا (١٩٧٦) ، وعلى افشال ثورة ايران الشعبية (١٩٥١) أو على دفع مصر للمصالحة — مع العدو الذى قال

عنه جمال عبد الناصر متباهيا : « نحن أبناء الفراعنة ، سنرميكم بالبحر » •

***

وحركات المحافظة اتجهت عموما الى توسيع نطاق التعليم الدينى • وكان العلامة شبلى النعمانى (١٨٥٧ — ١٩١٤) قد قال عند انشاء دار العلوم لندوة العلماء بلكنؤ : « ان نهضة الشعوب الأخرى هى أن تتقدم الى الأمام ، أما نهضتنا فهى أن نعود الى الوراء حتى ننضم الى عصر النبوة » •• وطبقا لهذه العقلية أقيمت معاهد ومدارس دينية ، لا تحصى ، فى كل البلدان الاسلامية • وكانت هذه المعاهد تهدف الى تعليم الأجيال المسلمة اللغة العربية والعلوم الاسلامية لتنضم ، من الناحية الفكرية على الأقل ، الى العصر النبوى وكان مؤسسو هذه المعاهد يأملون أن يتمكن الخريجون فيها من وقاية أنفسهم من مؤثرات الزمن •

ونجحت هذه الحركة تماما فى انشاء شبكة من المدارس الدينية فى كل أنحاء العالم الاسلامى فلم تبق منطقة ما تخلو من خريجى هذه المدارس • ولكن نجاح هذه المدارس مشكوك فيه فيما يتعلق بتربية العقل والفكر الاسلامى • فأما الذين توظفوا فى مدارسهم ذاتها أو فى مؤسسات مماثلة فأبقوا على مظهرهم الذى ورثوه عن المدرسة ، لأن ذلك المظهر كان رأسمالهم

لاحراز التقدم فى بيئتهم . وأما الذين خرجوا عن اطار المؤسسات الدينية فلم يكونوا مختلفين فى شىء عن خريجى المدارس الأخرى ، وظل التقدم الوظيفى هو هدف حياة أولئك وهؤلاء ، على حد سواء .

ولهذه النتيجة سببان رئيسيان :

أولهما : أن قادة التعليم الدينى لم يفهموا جيداً أن قضية التعليم الدينى لا تنحصر فى تدريس اللغة الاسلامية والتعاليم الدينية ، بل هى اعطاء الاسلام المكانة اللائقة به فى الفكر العصرى . ان الجيل الذى تربى فى المدارس الدينية كان يتقن العلوم الاسلامية التقليدية ، بدون شك ، ولكن الاسلام لم يكن جزءا أصيلا وحقيقيا من عقله ، لأن هذا الجيل يرى أن الاسلام دون مستوى الفكر العصرى الرائج . ان الاسلام الذى درسه هذا الجيل لم يكن أكثر من ملحق وهامش بدلا من أن يكون هو غذاءه الفكرى . والواضح أن ملحقا فكريا من هذا النوع لا يلبث أن يجرفه طوفان الأفكار العالمية .

وثانيهما : أن التغيرات الحديثة قطعت ارتباط التعليم الدينى بالاقتصاد . ومن الحقائق التاريخية أن نظاما تعليميا محروما من الأساس الاقتصادى لن يحرز مكانة تذكر فى نظام الحياة .

***

وأقصد بحركات (الاحياء) ــ وهى الطريق الثالث ــ تلك التى قامت لاقامة النظام الاسلامى . وقالت هذه الحركات ان السبب فى جميع المشـكلات التى يواجهها المسـلمون فى العصر الحاضر هوأن الحكومة الاسلامية غير قائمة على وجه الأرض ، فلو تمكنا من تنظيم المجتمع الاسلامى على أسـاس الشريعـة الاسـلامية لحلت جميـع مشـكلاتنا ولأحرز المسـلمون على المسـتوى الدولى ذات المكانة التى كانوا يحتلونهـا فى الماضى لألف سنة منذ ظهور الاسلام .

وقد شرحت هذه الحركات التعاليم الاسلامية بمصطلحات سياسية ، الأمر الذى اسـتقبله كثيرون من المسـلمين الحائرين فى النصف الأول من القرن الحاضر كافضل قصيدة عصرية لصالح الاسلام ، فتجمعوا بسهولة فى المخيم الاسلامى بعكاظ السياسة. ولكن هذه السوق لم تدم طويلا . فبما أن فكر هذه لحركات كان قائما على الشرح السياسى للاسلام ، فسرعان ما اصطدمت بالحكومات اللااسلامية فى بلدانهـا . وكان هـذا الاصـطدام كاصطدام البطيخ بالسكين . وكان أحد الرؤساء لعرب ، حين استخلص لنفسه الحكم ، قد هـدد أعـداءه السـياسيين بأنه سيسحقهم ، وسيسحق كل الذين يعارضونه ، ولاشك أن أكثر حكام المسلمين هم من هـذا النموذج وقد كانت نوايا هـؤلاء الحكام المسلمين أكثر تحققا فى حق الحركات الداعية الى اقامة النظام الاسلامى . فان الحـكام المسـلمين قـد سحقوا هـذه

الجماعات فى كل بلد بحيث يبدو أنه لا يوجد لهامستقبل مرموق فى بلد ما .

ان فشل الحركات الداعية الى النظام الاسلامى لا يعزى الى « اجرامية » أندادها السياسيين وحدهم . فزعماء هذه الحركات يتحملون جزءا كبيرا من المسئولية ، لأنهم آمنوا بفكرة خاطئة تماما ، وهى أنهم قادرون على انشاء حكومة اسلامية بفضل أصوات الناخبين المسلمين فى بلادهم . لقد نسوا الحقيقة التاريخية القائلة بأن الحكومات دائما تقوم وتبقى طبقا للأفكار السائدة فى عصرها . ان بنيان لعصر الفكرى قائم على أسس علمانية . ولذلك لا يمكن انشاء جزيرة اسلامية دون تحطيم حواجز الفكر العصرى .

***

أما حركات التعمير فأقصد بها تلك المدرسة الفكرية التى تقول بتجنب لاصطدام المباشر مع لسلطات السياسية ، لاستمرار العمل فى المجالات الأخرى .

ولسوء الحظ ، فان هذا الفكر قلما استقطب المسلمين فى العصر الحديث .

يقول الشيخ محمد عبده انه خلال اقامته بباريس (١٨٨٤) قال لأستاذه (الأفغانى) ذات مرة : ان اصطدامنا السياسى مع

الانجليز والفرنسيين ليس ذا فائدة تذكر ، بينما مجال الدعــوة الى دين الله مفتوح فى أوربا وأمريكا ، فلم لا نبتعد عن السياسة وننشـغل بالدعــوة والتعليم ، فاحتقر الأفغــانى ، بطبيعتــه الثــورية ، هــذا الاقتــراح وأجاب : « انمــا أنت مثبط » .
وباستعراضنا للحركات الاسلامية لا نجد حركة ـ جديرة بالذكر ـ قامت فى العصور الأخيرة ، وركزت على أسـلوب التعمـير والبناء . وقد ظل الزعماء المسلمون يضحون بأنفسهم لأجل أفكار رومانتيكية على حد قول شاعر فارسى : « ان الزمن لا يتواءم معك وأنت فى خصام مستمر مع الزمن » . ان أحدا من الزعماء المسلمين لم ينتبــه الى الفكر الايجابى الذى عبر عنــه الشاعر الهندى المظلوم « حالى » (١٨٣٧ ـ ١٩١٤) فى بيت شعر له يقول :

« اتجه أنت فى اتجاه الريح » !

ان هناك مثالين فريدين فى الهنــد سلكا هذا الاتجاه ، وصاحباهما من الشخصيات السيئة السمعة ، وأنا أقصد سـيد أحمــد خان (١٨١٧ ـ ١٨٩٨) وميرزا غلام أحمــد القاديانى (١٨٤٠ ـ ١٩٠٨) .

وكان الأول يقول ان الحكومة الانجليزية قد سـدت علينا أبواب العمل السياسى ولكن كل أبواب التعمير والبناء الأخرى مفتوحة أمامنا . وكان يقول اننا نستطيع أن نتقدم بدون عوائق

فى مجالى التعليم والاقتصاد اللذين يعتبران أساس كل المجالات الأخرى •

أما ميرزا غلام أحمد القاديانى فبحث عن هــذا الامكان فى ميدان آخر ، وهو ميدان الدعوة • وكان القاديانى يرى أن مجال العمل مفتوح للمسلمين بالدعوة داخل الطوائف المختلفة بالبلاد ، بل وداخل الشعب الحاكم نفسه •• وهذا لأن الدعوة أهم هدف من أهداف الاسلام ، ومن نتائجها الطبيعية الغلبة التى نفشل فى التوصل اليها بجهودنا السياسية وحدها •

ولكن ، لسوء الحظ ، لم تتمكن الحركتان من استقطاب عامة المسلمين • وكان هذا لسببين : فأولا : كانت عقول الزعماء والعامة قد تبلدت بسبب الانغماس فى الأفكار المعادية للاستعمار ، ولم يعد ممكنا أن يفكروا بأســـلوب آخر • وكل من لا ينادى بالمواجهة السياسية مع الاستعمار ، كان عميلا فى نظرهم • ووصل الأمر الى أن زعماءنا وجدوا أن كتاب أرنولد (الأستاذ السابق بجامعة عليكره الاسلامية) « دعوة الاسلام Preaching of Islam

قد ألف لأهداف استعمارية ، لأن الكتاب أثبت أن الاســـلام انتشر بالدعوة السلمية بدلا من السيف !!

والسبب الثانى هو أن زعيمى الحركتين فشلا فى تقديم فكرهما بالأسلوب الصحيح • فارتكب سيد أحمد خان حماقة تطبيق

أفكار القرن التاسع عشر على القرآن • ويكفى لاثبات صدق نيته أنه أعلن أن مجلته « تهذيب الأخلاق » تمثل فكره وحده دون كلية عليكره المحمدية • ولكن هذا الفصل لم يكن ناجحا عمليا ، فأصبحت دعوته مشبوهة فى أعين الناس ، لأنها قامت على استدلال غير صحيح لاثبات قضية صحيحة •

وارتكب القاديانى أيضا خطأ مماثلا • فحين بدأ عمله كان سائر الزعماء المسلمين منشغلين بالجهاد ضد الانجليز ، وشعر المجاهدون المتحمسون بأن القاديانى يريد صرف المسلمين عن جبهة الجهاد المقدس • ورد القاديانى قائلا : ان الجهاد القتالى ليس حكما شرعيا دائما وثابتا ، فأفتى العلماء بأن القاديانى عميل للانجليز • وهنا خطا القاديانى خطوة أخرى تأكيدا على كلامه فزعم أنه يتلقى الوحى وأنه لا يقول شيئا الا بأمر من السماء • ان هذا الادعاء الضال ، مع كل أخطائه ، لم يكن فريدا فى الزمن القديم • فكثيرون من أسلافنا ، وعلى سبيل المثال شاه ولى الله الدهلوى (١٧٠٣ — ١٧٦٢) يستخدم عبارات مماثلة كقوله : « ألهمنى ربى » • ولكن خطأ القاديانى زاد شناعة حين ادعى بصراحة أنه رسول الله ، الأمر الذى أجمعت الأمة على كفر قائله بعد ختم النبوة •

وارتكب لقاديانى أيضا خطأ مماثلا • فحين بدأ عمله كان يجرى بين الطرفين حول « تخطيط العمل الاسلامى فى الظروف

الراهنة » تركز على تفسير جديد للقرآن وعلى ادعاء نبوة جديدة بعد النبوة المحمدية . وان كان معارضو سيد أحمد خان وميرزا غلام أحمد القادياني مخطئين في بداية الأمر ، فان سيد أحمـد والقادياني ارتكبا أخطاء أشنع ، في نهاية الأمر ، ولم تظفر الأمة بشيء سوى فتاوى الكفر والفسق .

الاسلام فى القرن الحادى والعشرين(*)

كتبت نيوزويك (١٨ فبراير ١٩٧٤) فى احدى تحقيقاتها الخاصة تقول : « ان الجيوش الاسلامية سادت الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى لنشر رسالة محمد .. والآن أحرز المسلمون ، لأول مرة فى تاريخهم منذ ذلك الوقت ، انتصارا مماثلا . ففى عصر من العصور كانت كل الطرق تؤدى الى روما أما الآن فكل الطرق تؤدى الى الرياض حيث يهبط ممثلو الشعوب الغربية كل يوم لمقابلة قارون العصر الجديد (الملك فيصل ـ ١٩٠٦ ـ ١٩٧٥ م) . » .

واختتمت المجلة الأمريكية تحقيقها بهذه الجملة :

« ان الجبل ، فى آخر الأمر ، يأتى الى محمد » ..

وخلفية هذه الجملة هى أن شعوب أوربا المسيحية ، عقب اندحار الحملات الصليبية ، بدأت « الصليبية الروحية » ، وكانت احدى فروع الصليبية الروحية التشكك فى الدين الاسلامى والادعاء بأن محمدا صلى الله عليه وسلم كان نبيا كاذبا . ومن بين الأساطير التى اخترعوها هذه الأسطورة التى أصبحت مضرب الأمثال فى الأدب الغربى . ويذكرها فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) فى مقاله « الشجاعة » قائلا :

(*) ترجم عن « الرسالة » عدد فبراير ١٩٧٨ .

« ان شخصا شجاعا يستطيع أن يأتى بمعجزات ، مثـــل معجزات محمد ، مرة بعد أخرى • لقد أكد محمد للناس ذات مرة أنه يستطيع أن يدعو الجبل للحضور اليه • وتجمع الناس لرؤية هذه المعجزة ونادى محمد الجبل للحضور اليه وأخذ ينادى مرة بعد أخرى • ولكنه لم يخجل حين ظل الجبل متماسكا فى مكانه ، فقال : ان لم يستطع الجبل أن يحضر الى محمد فمحمد يستطيع أن يذهب الى الجبل » ••

ان عالم اليوم يشهد تطورات وتغيرات سريعة ، ولو نظرنا الى الأمر بعمق فسنجد أن هذه التغيرات تتجه الى ذات الهدف الذى أشارت اليه المجلة الأمريكية ، ساخرة ، بأن « الجبل ، فى آخر الأمر يأتى الى محمد » •

الابتعاد عن الشقاق :

ان الثورة الاسلامية الفكرية مثل العجلة المسننة والله تعالى يخرج عجلته ، بخلق الظروف المناســـبة ، ليقوم عباده ويربطوا عجلتهم بالعجلة الالهية • وحين تنضم جماعة بشرية ، على هـــذا النحو ، الى المشروع الالهى يظهر ما يسمى بالثورة الاســلامية الفكرية • ان الثورة الاسلامية فى القرن السابع الميلادى كانت حدثا من هذا النوع • ان المهاجرين والأنصار بتأييدهم للرسول انضموا كلية الى المشروع الالهى ، وكانت النتيجة تلك الثورة العظيمة التى لا تزال آثارها باقية على وجه الأرض • وأريد أن

أذكر هنا عنصرا واحدا من العناصر التى أدت الى نجاح الثورة الاسلامية ، وهو عنصر حاسم فى معظم الأحايين ، ألا وهو عدم اثارة الخصام (وخصوصا الخصام السياسى) لاحداث حساسيات تفسد كل الجهود السابقة •

وقد شهد التاريخ الاسلامى فى السنة الحادية عشر الهجرية موقفا حرجا مماثلا • فحين أثيرت قضية انتخاب الخليفة فى أعقاب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، طالب الأنصار باختيار رئيسهم (سعد بن عبادة) خليفة • وكان طبيعيا أن يرى الأنصار أن الخلافة حق لهم ، لأنهم هم الذين استضافوا المهاجرين رغم أنف الجزيرة العربية كلها ، وهم الذين حطموا اقتصادهم لأجل الاسلام ، وترملت نساؤهم وتيتم أطفالهم فى سبيل الاسلام • ولكنهم حين رأوا أن المجموعة الأخرى من المسلمين (المهاجرين) لا تؤيدهم فى هذا ، أخذو يقولون بتوزيع الخلافة بين الطائفتين (منا أمير ومنكم أمير) •

وكان هذا موقفا حرجا غاية فى الحساسية • ولو استمر هذا الخلاف السياسى لبرزت السيوف ولاقتتلت الطائفتان ، ولانتهى التاريخ الاسلامى فى قرية يثرب فى السنة الحادية عشرة بعد الهجرة • وحين طال الخلاف ، وقف أبو بكر (رضى الله عنه) وأشار فى خطبته الى جانب حساس ، وهو أن العرب ، فى تلك الظروف ، لن يقبلوا أميرا الا من قريش (ولن تعرف العرب هذا

الأمر الا لهذا الحي من قريش (١)) • واعترف الأنصار بهذه الحساسية السياسية وسحبوا مطلبهم ورضوا بالتبعية للمهاجرين ولم يثيروا قضية الخلافة حتى النهاية • ولم يكن بينهم سوى شخص واحد ، هو سعد بن عبادة ، الذى لم يرض بالأمر فلم يبايع الخليفة الأول ، ولكنه لم يبدأ حملة احتجاج ومطالبات ضد لحاكم الجديد وخرج الى الشام حيث لقى ربه بكل صمت•

ان هذا الايثار السياسى من الأنصار كان أكبر عامل دفع بالاسلام الى آفاق عالمية من دائرته الاقليمية حتى ذلك الوقت • ولو أصروا على اتخاذ الأسلوب الانتخابى الديمقراطى لاقتتل المسلمون ولما خرجت الدعوة الاسلامية من الجزيرة •

ان القرن العشرين كان من الممكن أن يكون قرن الاسلام ، تماما كما كان القرن السابع الميلادى قرن الاسلام • ان الله تعالى قد خلق لنا ، مرة أخرى فى هذا القرن ، ظروفا مؤاتية من أحسن ما تكون ، ولكن المسلمين أضاعوا القرن كله فى خصومات سياسية غير مجدية • ولم تقم جماعة ما ، بل وفرد ما يستحق الذكر ، لينضم الى المشروع الالهى • ونحن الآن نقترب من نهاية القرن ، والرب ، الذى وفر كل هذه الامكانات ، لا يزال ينتظر عباده ليربطوا عجلتهم بعجلته • ان كل تطورات المستقبل رهن لنوعية استجابتنا لهذه الامكانات • ولو كانت استجابتنا ايجابية

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ، القاهرة ١٣٧٤ •

فسيكون القرن الحادى والعشرون هو قرن الاسلام • ولو لم يخرج من بيننا المستجيبون لهذه الامكانات ، فلا عجب لو اختار الله مخلوقا آخر من مخلوقاته دون البشر ليعلن أمر الله • ولكننا لن نجد عنصرا لسعادتنا لو حدث ذلك ، لأنه حين يقوم غير الانسان بأعمال الانسان فذلك اعلان من الله بأنه قد فقد ثقته بالبشر • وحين تخرس الألسنة البشرية عن الاعلان عن أمر الله تخرج الدابة من بطن الأرض (النمل : ٨٢) لتعلن أمر الحق • ولكن حين يتخذ الله الدواب لاعلان كلمته فهذه ليست بساعة فرح ، بل هى ساعة الهلاك ، فهنالك تقلب الأرض بمن عليها وتنزع من الانسان الأرض الخضراء ويدفع به الى عالم الدخان والنار حيث الخزى والهوان الأبدى •

نهاية العبودية :

أحرزت شعوب أوربا المسيحية مكاسب جديدة بصليبيتها الروحية التى ابتكرتها عقب اندحار الحروب الصليبية (١٠٩٦ — ١٢٧١) • فانتقلت البحوث العلمية التى كانت تجرى بالأندلس الى البلاد الأوربية رويدا رويدا وأدت فى نهاية الأمر الى تفجر الثورة العلمية والصناعية • وسيطرت شعوب الغرب على العالم الاسلامى كله بتسلحها بالطاقات العلمية والعملية الجديدة • وقد وصلت سيطرة الغرب الى منتهاها باندحار الأسطول البحرى العثمانى من ناحية ، وبشهادة السلطان تيبو ، من ناحية أخرى سنة ١٧٩٩ •

ولكن الله تعالى أوجد فى الثورة العلمية نفسها عوامل أخذت تعمل ضد مصالح الشعوب الغربية • وكان من بين هذه العوامل ظهور منهج علمى لدراسة الأشياء ، ذلك المنهج الذى أدى الى ظهور علم الاستشراق الجديد الذى بدأ بتوماس كارلايل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١) • ان أسلوب الفكر العلمى أبطل نظرية « الخديعة المقدسة » Pious Fraud التى اخترعوها لتشويه حقائق الاسلام وتلفيق أساطير لا أساس لها من الصحة • وهكذا قضى العلم على ذات الأرضية التى كان الاستشراق القديم يزدهر عليها •

ثم أفرزت الثورة العلمية نظريات القومية والديمقراطية التى أبطلت نظام الاستعمار واحتلال أراضى الغير، من الناحية الفكرية• ووصلت أفكار السلطة الوطنية والحكومة الشعبية من الغرب الى البلاد المحتلة وأصبحت أسلحة فكرية فى أيدى حركات التحرير الوطنية • ثم جاءت الحربان العالميتان ـ اللتان أنتجهما النظام الصناعى ـ لتنزعا من شعوب الغرب منطق القوة ، فتولدت الظروف التى حررت الشعوب الافريقية والآسيوية من سيطرة الغرب السياسية •

وآخر تطور فى هذه المتغيرات المتتابعة هو اكتشاف العرب لقوة النفط الذى يجرى فى شرايين العالم الصناعى جريان الدم فى شرايين الجسد البشرى • وقوة النفط قد سلبت الشعوب

الغربية سيطرتها الاقتصادية التى بقيت لها عقب زوال السيطرة السياسية • ان الله تعالى قد عوض تخلف المسلمين الصناعى بأعلى مستوى لدرجة أن الدول الصناعية أصبحت الآن فى موقف الدفاع ازاء ظهور هذه القوة •

معقولية الاسلام :

والشيء الهام الآخر الذى تمخض عن تطورات العصر الحديث هو الأحوال العلمية التى أكدت على معقولية الاسلام دون سواه من الأديان • ويمكن وصف هذا الجانب من التطورات الحديثة « بالمعقولية التاريخية » Historical Credibility فقد بدأ الباحث العصرى يدرس الأديان الرائجة فى ضوء التاريخ ، فوجد أن الدين الاسلامى هو الوحيد ، من بين سائر الأديان ، الذى يعتبر موثوقا به ومعقولا من الناحية التاريخية • أما الأديان الأخرى كلها ، فهى ، من وجهة نظر المؤرخين ، لا تعدو أن تكون أساطير تقليدية • والمسيحية أحدث دين تاريخيا بعد الاسلام • ولكن لا يوجد توثيق تاريخى للمسيحية خارج الأناجيل • ان السيد المسيح كان نبيا من أنبياء الله ، بدون شك ، طبقا لايماننا ، ولكن ، فيما يتعلق بالتاريخ البشرى المدون ، فلا توجد شواهد تاريخية كافية لاعتبار المسيح عليه السلام « شخصية تاريخية » بالمفهوم التاريخى العادى • وكان كثيرون من الباحثين والمؤرخين الغربيين ، من نهاية القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن

العشرين ، ينكرون مجرد وجود المسيح ، لأنه لم يكن هناك من دليل على وجوده فى تاريخ عصره ما عدا الأناجيل المشكوك فيها تاريخيا .

وقد توصلوا فى النصف الثانى من القرن العشرين الى بعض الشواهد التاريخية القديمة التى تذكر اسم المسيح وأحواله بصورة مقتضبة واجمالية ، ولكن هذه الشواهد لا تزال غير كافية لوضع تصور تاريخى عن حياته عليه السلام لدرجة أن دائرة المعارف البريطانية تقول فى طبعتها الأخيرة « انه من الصعب أن تكتب الحياة الحقيقية للمسيح بيقين » (١) . أما حياة رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم فكل مؤرخ يضطر للاعتراف « بأن محمدا ولد فى ضوء التاريخ الكامل » (٢) .

ويمكن تسمية الجانب الآخر من التطورات الحديثة « بالمعقولية العلمية » Scientific Credibility فعندما تدرس كل الأديان ــ ما عدا الاسلام ــ فى ضوء الحقائق العلمية التى اكتشفت أخيرا ، يظهر تباين شاسع بين هذه الحقائق وبين معتقدات تلك الأديان ، ويستحيل الاعتقاد بصدق هذه الأديان على صورتها الراهنة . ولا يستثنى من هذا الوضع دين ما عدا الاسلام . وسأذكر مثالا واحدا لما يحدث عند مقارنة هذه الاديان بالحقائق العلمية ..

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، طبعة سنة ١٩٧٧ ، المجلد ١٠ ، ص ١٤٥ .

(٢) دائرة المعارف الأمريكية ، طبعة سنة ١٩٦١ المجلد ١٩ ، ص ٢٩٢ .

يقول العـــالم الأمــريكى وولتر أوســـكار لوندبرغ Walter Oscar Lundberg « ان العـــالم ، بالمقارنة مع الآخرين ، يمتاز بميزة خاصـــة تؤهله لفهم حقيقة الله . فالمبدأ الأساسى الذى يعمل العالم الطبيعى بموجبه ليس الا تعبيرا عن وجود الله » . أما لماذا ينكر الناس وجود الله بعد تلقى العلوم الطبيعة ، فيجيب عليه الأستاذ الأمريكى المذكور قائلا :

« ان فــكرة الاله المخلوق على هيئــة انسان ــ بدلا من فكرة انســان مخلوق على هيئــة الله ــ تغرس بعمق فى الشــباب فى المجتمعات المســيحية المنظمة . وهذه العقول حين تدرس العلوم الطبيعية ، فى مرحلة تالية ، تجد أن هذا التصـــور المعكوس المحدود البشرى لله يزداد تنافرا مع اتجاه العــلوم الطبيعية العقلى الاستقرائى . وفى نهاية الأمر حين تفشــل الجهود للتوفيق بين العقائد التقليــدية وبين العلم ، ينبذون تصور الله نهائيا » (١) .

أما الاسلام فيختلف أمره تماما . فالتعاليم الاسلامية تطابق جميع الحقائق العلمية الثابتة ، ويجوز القول ان العلم الحديث هو علم الكلام الاسلامى . ان هذه الحقيقة تثبت معقولية الاسلام

(1) Monsma, Eviden ce of God in an Expanding Universe.

العلمية . فما كان للاسلام أن يصمد أمام الحقائق العلمية الحديثة لو كان نابعا من مصدر غير موثوق به ، أو كان قد تعرض للتزييف البشرى على غرار الأديان القديمة الأخرى .

امكانات جديدة :

ان شيئين قد ظهرا فى وقت واحد فى العصر الحديث ، وهما حرية الرأى وتطور وسائل الاعلام والاتصال . ان حرية الرأى قد أصبحت حقا أساسيا من حقوق الانسان فى سائر العالم خارج الكتلة الشيوعية . ان الحكومة الهندية ، خلال حكم الطوارىء (يونيو ١٩٧٥ ــ مارس ١٩٧٧) كانت قد سلبت حق حرية الرأى فقام ضدها طوفان عظيم جرف تلك الحكومة فى أول انتخابات عامة تلت اعلان حكم الطوارىء .

والشىء الآخر الذى ظهر مع حرية الرأى هو المطبعة التى مكنت نشر فكرة ما فى المجتمعات البشرية بسرعة كبيرة . لقد ولد السيد المسيح فى قرية الناصرة الفلسطينية قبل ألفى سنة . وكان انسانا عظيما ورسولا عظيما ولكن صوته لم يصل الا بصعوبة بالغة خارج نطاقه الاقليمى . أما اليوم فيستطيع أى انسان ، باستخدام وسائل الاعلام الحديثة ، أن يخاطب العالم كله فى وقت واحد .

ان هذه الامكانات قد فتحت لنا فرصا وأبوابا جديدة .

ويمكن القيام بالدعوة ونشر الاسلام على نطاق لم يسبق له مثيل في التاريخ البشرى بشرط عدم الاصطدام سياسيا مع الحكام . ان الوسائل الحديثة قد مكنت الدعاة من أن يخاطبوا العالم كله في وقت واحد فتصل رسالة الله الى كل أرجاء العالم فلا تبقى أذن لم تسمع بها ولا عين لم تشاهدها .

الأرضية الفكرية :

ان الحركات الحديثة التى قامت على هتاف ثورة الاسلام السياسية ، مهما بلغ اخلاص أصحابها ، قد شوشت وأفسدت الأمر . فالثورة السياسية لا تقوم الا على الأرضية الفكرية الراسخة . ان الأرضية الفكرية لصالح الاسلام قد توفرت ، من ناحية الامكان ، منذ مدة . ولم يكن على رجال الحركات الاسلامية الحديثة سوى أن يتيحوا لتلك الامكانات العمل والنشاط فى مجتمعاتهم . ولكنهم أقاموا العوائق فى وجه الاسلام بفتحهم جبهات سياسية غير ضرورية وليس من باب المبالغة أن أقول : ان امكانات الاسلام السياسية كانت ستكون أكثر قوة اليوم لو لم تظهر الحركات الاسلامية السياسية فى القرن العشرين .

ولنفهم هذا من مثال حركة تحرير الهند :

ان شئون السياسة والحكومة كانت تعتبر حكرا على

« القصر الملكى » فى العصور القديمة • فكان كل من يستولى على القصر بفضل قوته وبراعته هو الحاكم القانونى • وفى مثل هذه الأحوال دخل الانجليز الى الهند ، متسلحين بالامكانات التى أفرزتها الثورة الصناعية • ومثلما كان بابر المغولى قد استولى على شمال الهند بمدفعيته المتقدمة ، سنة ١٥٤٦م ، أكمل الانجليز سيطرتهم على الهند عام ١٨٥٧ متسلحين بالقوة الميكانيكية •

ولكن العلم الحديث الذى مكن الانجليز من القوة المادية أفرز كذلك علوما سياسية واجتماعية جديدة أخذت تغير الأرضية الفكرية القديمة • فهذه العلوم أنتجت فكرة (الديمقراطية) و (الجمهورية) التى قضت على فكرة الحكام السلاطين ، وأدت الى ظهور فكرة (القومية) التى قضت على حق شعب ما فى السيطرة على شعب آخر • وهكذا فقد حكام الهند الأوربيون ، فى القرن العشرين ، بسبب أفكار نبتت فى بلادهم نفسها ، الأساس الذى مهد لهم احتلال أراضى الشعوب الأخرى فى القرون السابقة •

ولكن الذين انبروا فى النصف الأول من القرن العشرين ، لتحرير الهند سياسيا ، أخفقوا فى استخدام هذه الأرضية الفكرية • وضحى آلاف مؤلفة بحياتهم من أمثال سوبهاش تشاندرا بوس والشيخ محمود حسن الديوبندى (١٨٥١ — ١٩٢٠) ، ولكنهم كلهم فشلوا فى تحرير الهند • والسبب فى ذلك

أنهم كانوا يتحـدون الانجليز فى الميـدان العسكرى حيث كان عدوهم لا يزال متفوقا عليهم بصورة حاسمة •

والمهاتما غاندى (١٨٦٩ ـ ١٩٤٨) هو أول شخص درس الأوضاع بعمق وتوصل الى فهم السر فى النتائج العكسية التى كانت أساليبنا تؤدينا اليها • لقد أظهرت له دراسته للغرب أن التاريخ السياسى العالمى قد دخل عصرا جـديدا • لقد فهم أن الانجليز قد فقدوا الأرضية الفكرية التى أتاحت لهم السيطرة على الهند ولكن أسلوبنا القائم على العنف يحول دون استغلال الأرضية الفكرية الجـديدة ، ولذلك لو قضـينا على القضـايا الجانبية التى نتجت عن الاصطدام المسلح مع المستعمرين لبرزت عوامل الجمهورية والقومية الفكرية ولسلبت الأرضية السياسية من الانجليز •

وحين تمكن المهاتما غاندى من الحاق الهزيمة بـ (بال غنغا دهارتيلاك) ، فأصـبح زعيم حزب المؤتمر القومى ، أعلن أن حركة تحرير الهند ستجرى على أساس أهنسا (اللاعنف) بدلا من هنسا (العنف) • وهـذا الاعلان كان أخطر وأشد على الانجليز من كل الحركات المسلحة التى كانت تعمل فى الهنـد منذ أكثر من نصف قرن • لقـد كانت لديهم حجج ومبررات متعددة للقضـاء على العنف بالعنف ، ولـكنهم كانوا يجهلون مواجهة طوفان اللاعنف • ويقال ان حاكما انجليزيا لاحـدى

المديريات الهندية أبرق للحكومة ، عندما واجه اللاعنف حينذاك يقول : « يرجى ابراق التعليمات لكيفية قتل نمر باللاعنف » •

وحين انتهى العنف والاصطدام المسلح بدأت العوامـــل الفكرية تقوم بعملها وأخذت نظريات القومية والجمهورية تسحب البساط من تحت أقدام الانجليز ، الى أن قرروا الرحيـــل عن البلاد • وهكذا كســبنا باللاعنف الحرب التى كنا قد خسرناها بالعنف •

والاسلام أيضا يواجه وضعا مماثلا •• ان الحرب السياسية تدور على قدم وساق فى شتى بقاع العالم لأجل النهضة الاسلامية الأمر الذى أدى الى وقوف الاســلام ندا للحكام السياسيين • وبسبب هذا الاصطدام بين الاسلام والحكام لا تنشط الامكانات الفكرية التى أفرزها العصر لصالح الاســـلام • اننا لو أبعدنا الاسلام عن موقف الند السياسى فســنفاجأ بزوال كل العقبات الزائفة الاصطناعية • ولو بدأت القوى المسلمة تخدم الاسلام بالجوانب والأساليب الايجابية لنشطت الامكانات العصرية توفر الجو لصالح الاسلام ، ولعرف الناس ، الذين يستغربون هــذا الأمر ، عما قــريب ، أن العودة من ميدان المواجهــة ستكون « فتحا مبينا » ، اليوم ، تماما كمـا كانت بالأمس فى صـــدر الاسلام (١) •

---

(١) المؤلف يشير الى هدنة الحديبية التى انتشر الاسلام فى أعقابها بصــورة مذهلة فى أنحاء الجزيرة العربية ــ المترجم .

الفهـــــــرس

مطابع المختار الاسلامى
دار السلام



وحيد الدين خان

يحتوى هذا الكتاب على مسح تاريخى لظهور الاسلام والمسلمين كقوة مدهشة فى الماضى ، ويدرس الاسباب التى أدت الى تخلف المسلمين ويسلط الاضواء على مختلف الحركات الاسلامية التى قامت فى العصور الماضية ، كما يدلنا على التغيرات الفكرية والعلمية التى طرأت على العصر الحديث — والتى لو احسن استخدامها — لامكن أن يكون القرن الحادى والعشرون قرن الاسلام ، تماما كما كان القرن الهجرى الاول .

حسين عاشور

مطابع المختار الاسلامى

